مجلة المجمع العلمي

البلاغة والأسلوبية
(التجاذب والتنافر)

الدكتور لطيف يونس حمادي

الملخص :

يتناول هذا البحث عناصر التجاذب والتنافر بين علم البلاغة العربية والأسلوبية ، بوصفها مصطلحا نقديا حديثا يهتم بدراسة النص الأدبي ، وتحليل الظواهر البلاغية واللغوية فيه ، بشكل يكشف جماليته ويبيّن أسلوب مبدعه . أما عناصر التجاذب والتنافر التي تناولها البحث فقد جاءت على وفق المحاور الآتية .

المحور الأول : أثر المتلقي في التشكيل البلاغي والأسلوبي .

المحور الثاني : عوامل التشكيل الأسلوبي .

المحور الثالث : زمانية البلاغة والأسلوبية .

المحور الرابع : السكاكي ت ٦٥٦هـ ما بين البلاغة والأسلوبية .

المقدمـــــة :

إنّ الحديث عن نشأة البلاغة يقودنا إلى ارتباطها الوثيق بالإعجـــاز القرآني وبلاغة الحديث النبوي الشريف ، والكشف عما فيهما من إعجاز ، وهذا ما بيّناه في المحور الثالث من البحث ، أما الأسلوبية فأنها لم تنشأ من فراغ ، كان لها جذور في علم البلاغة العربية ، وقـد اهتمـت البلاغـة بالأسلوب ولكن نظرتها تميزت بالمحدودية في تناولها له ؛ وذلك في حدود المعرفة السائدة في تلك الحقب الزمنية ن وعلى الرغم مـن بدائيـة تلـك النظرة للأسلوبية وعدم تبلورها ، إلا أنها حملت دوافع النظـر الأسـلوبي الذي تطور شيئا فشيئا حتى بلغ مرحلة النضج في نظريـة الـنظم التـي صاغها عبد القاهر الجرجاني .

لقد وَجَدَت الأسلوبية مجالا طيبا في الدراسات القديمة ولاسيما فـي مباحث الإعجاز القرآني التي استدعت بالضرورة ممن تعرضـوا لـه أن يتفهموا مدلول الكلمة عند بحثهم المقارن بين أسلوب القرآن الكريم وغيره من أساليب العرب ، متخذين ذلك وسيلتهم لإثبات الإعجاز القرآني ، وقـد تفاوت هذا المفهوم ضيقا واتساعا من باحث إلى آخر .

إن ما يجمع البلاغة وعلم الأسلوبية ، هو في الوقت نفسه ما يمكـن أن يوثّق الصلة بينهما ، فهما يقومان بفحص مادة واحـدة هـي الـنص الأدبي ، بالرغم مما يمكن أن يكون بينهما من اختلاف في طبيعـة هـذا الفحص ومستواه وهذا في الوقت نفسه هو المجال الذي يريـد البحـث أن يبيّنه مع مجالات التجاذب بين العلمين .

المحور الأول : أثر المتلقي في التشكيل البلاغي والأسلوبي .

المتلقي في البلاغة هو المقام مع مراعاة مقتضى الحال ، وهو عمدة البلاغة العربية ، وقد ارتبطت به حتى صار جزءً من تعريفها ، فبلاغة الكلام هي "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[1]. ومقتضى الحال ، أو المقام يعني شيئين :

١ـ السياق الخارجي . ٢ـ المتلقي .

والسياق الخارجي هو الظرف أو الموقف ، أو الحال التي يقال فيها الكلام كأن يكون مقام فرح أو حزن أو مدح أو تهنئة أو رثاء وما شابه ذلك من أحوال المقامات .

وتدعو البلاغة العربية القائل إلى أن يراعي ذلك في اختيار ألفاظه وعباراته لتشكيل أسلوبه المناسب لهذا المقتضى. يقول السكاكي : "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذّم ، ومقام الترهيب يباين مقام الترغيب ، ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل. وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار وجميع ذلك معلوم لكل لبيب"[2].

---

[1] الإيضاح ، للقزويني ، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م / ٨٠.

[2] مفتاح العلوم للسكاكي ، ضبطه وشرحه نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م / ٩٥.

وأما المخاطب فهو المتلقي ، مستقبل الرسالة ، وهو المستهدف بالخطاب ، ولذلك كان عنصرا أساسيا في عملية الإبداع الأدبي . وهو أحد أركان نظرية الاتصال . وهكذا يبدو الأسلوب حصيلة مجموعة من العناصر هي : المبدع والنص ، والمقام ، والمتلقي . وهو لا يتشكل من واحد من هذه العناصر فحسب بل منها جميعا . وإنّ إهمال الباحث في الأسلوب لأيّ واحد منها هو تفريط لا يعين على إيفاء الظاهرة الأدبية حقّها ، ويبقى قاصرا عن الإجابة عنها.

ومن الواضح أن هذه العناصر التي تشكل الأسلوب قائمة على توازن واعتدال بين الداخل والخارج ، فهي لا تنظر إلى بنية العمل الأدبي على أنها مغلقة ، منعزلة عن الملابسات الخارجية : كالتاريخ ، والمجتمع ، والمتلقي ، والمؤلف نفسه ، كما فعلت المناهج الشكلية الحديثة كالبنيوية وغيرها ، بل تنظر إليها في سياقها الحقيقي.

إن الأسلوب الذي هو اختيار من المبدع لألفاظ وعبارات لا حصر لها ، تضعها بين يديه اللغة بما تتميز به من ثراء في هذه المفردات ، فأيّ بناء لغوي لأيّ نصٍ يثير لدى المتلقي تداعيات كثيرة قد تخاطبه وجدانيا وعاطفيا ، أو تكون عنده إشارية فلسفية.وقديما عبّر الجاحظ عن ذلك أدق تعبير ، إذ قال إن : "ولكل صناعة ألفاظٌ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، تلزق بصناعتهم إلاّ بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة"[٣].

---

[٣] الحيوان للجاحظ ، تح عبد السلام هارون ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط ٢/ ٣ : ٣٦٨.

وتهتم الأسلوبية الحديثة . على نحو ما اهتمت البلاغة العربية بالمتلقي اهتماما كبيرا ، وتسمى الدراسة التي تبحث في ذلك "أسلوبية المتلقي" وفيها يحتل المتلقي مكانة بارزة في نظرية الأسلوب الأدبية الاتصالية ؛ حيث لا يظهر القارئ هامشيا ، وإنما لا يتحقق الوجود الأسلوبي ، أو الفعل الأسلوبي إلاّ بحضوره وتجلّيه[٤].

إن الاختيار الذي يمارسه المبدع لألفاظه وعباراته وصوره وأفكاره ، والأسلوب نظمها على شكل معين ليس خاليا من الضبط ، وإنّ حريته في هذا الاختيار ليست مطلقة ، بل يتمّ ذلك ــ في جملة ما يتمّ ــ باستحضار المتلقي أو المخاطب بمصطلح البلاغة العربية. وهو يشكل عنصرا أساسيا من عناصر الاتصال اللغوي .

لقد حظي المتلقي في التراث البلاغي والنقدي عند العرب بمكانة فاقت مكانة المبدع نفسه ، ذلك أن الأدب العربي : شعرا ونثرا كان دائما ملتصقا بالجمهور ، مجنّدا لخدمة همومه ومشكلاته .

يقول ابن رشيق داعيا الشاعر إلى مراعاة المخاطب : "غاية الشاعر معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان ، ليدخل إليه من بابه ، ويداخله في ثيابه ، فذلك سرّ صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس ، وبه تفاضلوا"[٥].

---

[٤] الأسلوبية ، مفاهيمها وتجلياتها ، موسى ربابعة ، جامعة الكويت ، ط١ ، ٢٠٠٣م / ٧٨.

[٥] العمدة في محاسن الشعر ونقده ، أبن رشيق القيرواني ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٥م / ٤٣٠.

وقال الجاحظ مخاطبا المبدع "إذا أعطيت كلَّ مقامٍ حقّــه ، وقمــت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقّ الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو؛ فإنه لا يرضيهما شيء"[٦].

لقد أخذت عناية البلاغة العربية بالمتلقي أشكالا عــدة ، لا يتســع المقام في هذا البحث لأن نقف عليها ، ولكن نذكر عناوينهــا مــن حيــث الجوانب، ففي الجانب النفسي ، المستوى الثقافي ، والمستوى الاجتمــاعي والطبقي .

المحور الثاني : عوامل التشكيل الأسلوبي (النص)

فطن حازم القرطاجني إلى أن الأسلوب متعدد الجوانب في تشكيله للنص قال : "والأقاويل الشعرية أيضا تختلف مذاهبها وأنحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التي يعتني الشاعر فيها بإيقاع الحيل ، التي هــي عمدة في إنهاض النفوس لفعل شيءٍ أو تركه ، أو التي هي أعوان للعمــدة وتلك الجهات هي ما يرجع إلى القول نفسه ، أو ما يرجع إلى القائل أو ما يرجع إلى المقول فيه ، أو ما يرجع إلى المقول له"[٧].

أي هو المبدع ، والموقف ، والنص ، والمتلقي . وبين ما يرجــع إلى كل جهة من هذه الجهات "وإذ قد تبين أن الكلام يهيأ للقبول من جهة ما يرجع إليه ، وما يرجع إلى القائل ، وما يرجــع إلــى المقــول ، فيــه ، والمقول له .

---

[٦] البيان والتبيين ، للجاحظ ، تح عبد السلام هارون ، مطبعة الخــانجي ، القــاهرة ، ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م / ١ : ١١٦.

[٧] منهاج البلغاء ، حازم القرطاجني ، تح محمد ابن الخوجة ، تونس ، ١٩٦٦ / ٣٤٦.

فواجب أن يعلم أن للكلام في كل مأخذ من تلك المآخذ ، التي بها تعتر النفوس لقبوله ، هيئاتٍ من جهة ما يلحقه من العبارات ، وما يتكرر فيه من المسموعات"[٨]. وهذا ما تشير إليه الأسلوبية الحديثة "إنّ عنصر الأسلوب لا يمكن تجريده من النص ، ولا من المؤلف ولا من المتلقين"[٩].

١. الأسلوب والنص :

ونقصد بالنص طبيعة الغرض الذي يراد التعبير عنه ، وقد فطنت البلاغة والنقد العربيان إلى هذا العنصر المهم من عناصر الاتصال ، فربطت الأسلوب بالرسالة المراد إبلاغها. يشير ابن الأثير إلى ارتباط الألفاظ المفردة التي ينتقيها المتكلم بالغرض أو الموضوع ، فيقول : "تنقسم الألفاظ في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة؛ ولكل منها موضع يُحسن استعمالها فيه؛ فالجزل منها يستعمل في مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق ، وذكر أيام البعد ، وفي استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك"[١٠].

ويقول ابن قتيبة متحدثا عن ارتباط أسلوبي الإيجاز والإطناب بالموضوع "ليس يجوز لمن قام مقاما في تحضيض على حرب ، أو حمالة

---

[٨] م . ن / ٣٤٧ .

[٩] الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها / ٨٧ .

[١٠] المثل السائر ، لابن الأثير ، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م / ١ : ١٦٨.

بدم ، أو صلح بين العشائر أن يقلّل الكلام ويختصره. ولا من كتب إلى عامة كتابا في فتح أو استصلاح أن يوجز"[١١].

ومن قبله قال الجاحظ "الإيجاز هو البلاغة ، فأما الخطب بين السماطين ، وفي إصلاح ذات البين ، فالإكثار في غير خطل ، والإطالة في غير إملال .. والسنّة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ، ويقصّر المجيب"[١٢]. ويربط ابن رشيق أسلوبي الصنعة والعفوية وصنعة التحكيك والتثقيف بالغرض الشعري ، فيقول : "قد قيل : لكل مقام مقال؛ وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده وأمور ذاته ، من فرح وغزل ومكاتبة ، ومجون وخمرية وما أشبه ذلك ، غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين ، يُقبل منه في تلك الطرائق عفو كلامه ، وما لم يتكلّف له بالا.. ولا يُقبل في هذه إلاّ ما كان محككا معادا فيه النظر جيدا لا غثّ فيه ، ولا ساقطة ، ولا قلق . وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب ، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع"[١٣].

٢. **الأسلوب والمبدع :**

إنّ المؤلف هو مبدع الأسلوب ، وهو صاحبه ، والأسلوب من علامات عبقريته وتميّزه ، وهو في أحد وجوهه ظاهرة فردية ، تمثل القائل ، وتدل عليه. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى الجانب الفردي في

---

(١١) أدب الكاتب ، لأبن قتيبة ، تح محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م / ١٩٩٥.

(١٢) البيان والتبيين : ١ / ١١٦.

(١٣) العمدة : ١ / ٢٣١.

عملية الإبداع الأدبي ، وإلى مقدار الجهد الشخصي المبذول فيها ، وإلى الجهة التي منها يضاف الكلامُ البليغ إلى صاحبه وهي ليست في أنفس الكلام التي يملكها كلُّ أحدٍ ، ولكن في أسلوب صياغتها . يقول : "نحن إذا أضفنا الشعر أو غير الشعر من ضروب الكلام إلى قائله ... لم تكن إضافتنا له من حيث هو كَلِمٌ وأوضاع لغة ، ولكن من حيث توخّي فيها النظم الذي بيّنا أنه عبارة عن توخّي معاني النحو في معاني الكَلِم.. فكما لا يشتبه الأمر في أن الديباج لا يختص بناسجه من حيث الإبريسم ، والحلي بصائغها من حيث الفضة والذهب .. ولكن من جهة العمل والصنعة ، كذلك ينبغي أن لا يشتبه أن الشعر لا يختص بقائله من جهة أنفس الكلام وأوضاع اللغة"[١٤].

وهنالك لون من ألوان الدراسات الأسلوبية الحديثة تعنى بالمبدع من منطلق عبارة بوفون المشهورة "الأسلوب هو الشخص نفسه"[١٥].

وهي تسمى "الأسلوبيةَ الفردية ، أو أسلوبية الكاتب. وهي ترى أن اللغة ظاهرة فردية ، وهي تتشكل عند كلّ قائل على نحو معين ، يعبر عن شخصيته وطبعه وطبقته وانتمائه. إنّ الأسلوب عموما هو التعبير الدقيق عمّا في داخله"[١٦].

---

[١٤] دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، علّق عليه وشرحه محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، ط٣ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م/ ٣٣٩.

[١٥] نحو نظرية أسلوبية لسانية ، فيلي ساندريس ، ترجمة خالد محمود جمعة ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م / ٢٩.

[١٦] م . ن / ٢٩.

إنّ أسلوب المبدع يخضع لذوقه الخاص ، على نحو يعكس بيئته وثقافته وشخصيته ورسوم ذاته الذي قد يخالف أذواق المتلقين حاله حال الاختلاف في سائر المظاهر الإنسانية المختلفة.

إنّ الأسلوب هنا اختيار ، أو انتقاء ، إنه "استعمال لغوي شخصي"[١٧]. يعكس شخصية القائل ، ويكون ـ كما يقول شوبنهاور ـ "التعبير عن معالم الروح"[١٨].

وللمبدع حضوره في البلاغة والنقد العربيين ؛ وقد أشار القاضي الجرجاني إشارة ذكية واضحة ـ سبقت الأسلوبيين المعاصرين ـ إلى صلة الأسلوب بطبع صاحبه ومعالم شخصيته حتى إنه كما يقول : "يرقّ شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ويسهل لفظ أحدهم ويتوعّر منطق غيره. وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإنّ سلامة الألفاظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة خلقه. وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك ترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته"[١٩].

---

[١٧] م . ن / ٣٢.

[١٨] م . ن / ٣٠.

[١٩] الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي عبد العزيز الجرجاني ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ -١٩٦٦م / ٤٧.

٣. الأسلوب والمتلقي والمقام :

أخذ الاهتمام بالمتلقي مساحة واسعة في الدراسات البلاغية والنقدية القديمة ، وبدا للباحثين واضحا أن الأسلوب لا يشكّل حضوره الفاعل إلاّ من خلال المتلقي الذي يحكم عليه ، ويميز تأثيره ، إذ هو المعني به أصلا ، فهو الذي يتلقى النص الذي هو أحد عناصر الاتصال التي أشارت إليه البلاغة العربية واللسانيات الحديثة . وهو ما يسمى الآن في الدراسات الأسلوبية الحديثة بـ(أسلوبية المتلقي) .

وقد راعى الأسلوب البلاغي جوانب كثيرة تتعلّق بالمتلقي فاستحضره في التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير والإيجاز والإطناب ، وفي ضروب الخبر المختلفة ، وفي صياغة الصورة الأدبية ، وفي وضوح الكلام وشفافيته ، وفي بناء القصيدة وفي غير ذلك من أساليب صياغة الكلام الكثيرة. وجميع ذلك من أجل إيصال النص إليه معبّرا مؤثرا يتفق مع أحواله المختلفة : نفسيا ، واجتماعيا ، وطبقيا ، وغير ذلك.

أما الجانب النفسي فهو مراعاة الحالة النفسية للمخاطب ، سواء أكان المخاطب حقيقيا له وجود مادي ملموس ، أم كان مخاطبا متخيلا أو مفترضا. ومراعاة الحالة النفسية ، تتمثل في أمثلة كثيرة منها مراعاة حالات المخاطب في حالات الخبر الابتدائي ، والطلبي ، والإنكاري ، وأساليب الخبر هذه مراعى فيها حالة المخاطب النفسية ، وما يعتريه من يقين أو تردد أو شك أو إنكار أو جحد ، أو ما شابه ذلك.

وأيضا من مراعاة الحالة النفسية لحالة المخاطب ما يتعلق ببعض أساليب (القصر) إذ هو ـ بالنظر إلى هذه الحالة ـ ثلاثة أنواع هي :

قصر إقرار ، وقصر تعين ، وقصر قلب . وكلُّ نوعٍ من هذه الأنواع يوجّه إلى مخاطب حقيقي أو متوهم ذي حالة نفسية معينة[٢٠].

ومن ذلك أيضا ما يتعلق بأسلوب ــ الالتفات ــ والعدول بين الضمائر ومن أغراضه تنويع أسلوب الخطاب للمتلقي لطرد السأم عنه. يقول حازم القرطاجني : "وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب ، وينتقلون من الخطاب إلى الغيبة. وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره ، فتارة يجعله ياء على جهة الإخبار عن نفسه . وتارة يجعله كافا أو تاءا ، فيجعل نفسه مخاطبا . وتارة يجعله هاء ، فيقيم نفسه مقام الغائب ، فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير متكلم أو مخاطب لا يُستطاب ، وإنما يحسُن الانتقال من بعضها إلى بعض"[٢١].

أما المستوى الثقافي فقد راعت البلاغة العربية في تشكيل الأسلوب مستوى المخاطب الثقافي والفكري ، وكان ذلك وجها آخر من وجوه حسن التواصل معه ، وإيصال الرسالة إليه معبّرة مؤثرة. نجد في البلاغة العربية دعوة إلى أن يكون الخطاب بمقتضى شخصية المخاطب فلا يكون أسلوب موجه إلى العالم كمثل أسلوب موجه إلى الجاهل أو قليل الثقافة ، ولا يخاطب بأسلوب أهل اختصاص قوم لا دخل لهم بهذا الاختصاص ذلك أن الأساليب واللغة التي تستعمل فيها هي نتاج حالات اجتماعية وقد يكون الشاعر الحُطيئة القائل للخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

---

[٢٠] ينظر : تفاصيل ذلك في الإيضاح / ٢١٤.

[٢١] منهاج البلغاء : ٣٤٨.

تحنَنْ عليّ هداك المليـــكُ فإنّ لكـلّ مقـامٍ مقـــالا[٢٢]

لعل أول من ألمح إلى فكرة ــ ارتباط المقام بالمقـال بشـر بـن المعتمر بعد ذلك أول من وضّح هذا القاعدة فربطها بالموقف وبالمخاطـب بمراعاة قدره ومعرفة حاله ، وما يحظى عنده مـن الألفـاظ والمعـاني ، فقال : "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبـين أقـدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكـلّ حالة من ذلك مقاما. حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعـاني ، ويقسـم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقـدار تلـك الحالات"[٢٣].

ثم اتسع الجاحظ في هذه الفكرة ، فدعا المتكلم إلـى أن يراعـي أحوال المخاطبين ، فلا يكون ما يوجهه إليهم فـوق مسـتواهم أو ممـا لا رصيد له في مخزونهم الثقافي والفكري ، يقول : "أرى أن ألفظ بألفـاظ المتكلمين ما دمت خائضا في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فـإن ذلك أفهم لهم عني وأخفّ لمؤونتهم عليّ. ولكلّ صناعة ألفاظ قد حصـلت لأهلها بعد امتحان سواها ... ولكل مقام مقال. ولكلّ صناعة شكل"[٢٤]. وقد لاحظ بعض البلاغيين العرب أن مراعاة المستوى الفكري والثقافي وحال المخاطب عامة هي من سمات الأسلوب القرآني. أشار ابـن وهـب إلـى ذلك ، وبيّن تنوع خطاب الذكر الحكيم بمقتضى مقام المخاطـب وحالـة ، فقال عن أسلوبي الإيجاز والإطناب : "فأما المواضـع التـي ينبغـي أن

---

[٢٢] ديوان الحطيئة ، تح نعمان طه ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٧ / ٣٣٥.

[٢٣] البيان والتبيين : ١ /١٣٩.

[٢٤] الحيوان : ٣ / ٣٦٩.

يستعمل كلّ واحد منهما فيها ، فإن الإيجاز ينبغي أن يُستعمل في مخاطبة الخاصة ، وذوي الإفهام الثاقب الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره ، وبمجمله عن تفسيره .. وأما الإطالة ففي مخاطبة العوام ، ومن ليس من ذوي الإفهام ، ومن لا يكتفي من القول بيسيره ، ولا يتفق ذهنه إلاّ بتكريره ، ولهذا استعمل الله ــ عزّ وجل ــ في مواضع من كتابه تكرير القصص ، وتعريف القول ليفهم من بَعُد فهمه ، ويعلّم من قَصُر علمه ، واستعمل في مواضع أُخر الإيجاز والاختصار لذوي العقول والأبصار"[٢٥].

والمستوى الاجتماعي ، وذلك أن يأخذ المبدع المتكلم في الاعتبار حال من يخاطب ، فيعرف قدره ومكانته الاجتماعية فيختار من الألفاظ والعبارات ما يناسب هذا المتكلم ، فما خطاب الملوك أو القادة أو الرؤساء مثل خطاب عامة الناس ، بل ما خطاب الملك مثل خطاب الوزير ، ولا خطابُ الوزير مثل خطاب المدير...

يقول ابن رشيق في ذلك : "وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب ، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع"[٢٦].

لقد كان هذا جزءً من المقام الذي دعت البلاغة العربية إلى مراعاته في الأسلوب وإلى نظم الكلام في ضوئه .

---

[٢٥] البرهان في وجوه البيان ، أبو الحسن بن وهب ، تح حفني محمد شرف ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م /١٥٤ــ١٥٥.

[٢٦] العمدة : ١ / ٢٣١.

المحور الثالث : زمانية البلاغة والأسلوبية .

١. زمانية البلاغة :

إنّ التحدث عن زمانية البلاغة العربية يقودنا إلى صلتها الوثيقة بالإعجاز القرآني ، إذ أسهمت بشكلٍ كبيرٍ في الكشف عن إعجاز القرآن الكريم وبلاغة الحديث النبوي الشريف ، وتوظيف فنونها في هذه المجالات ، وذلك مما يدعم مكانتها العلمية ، لذا أصبحت علما من العلوم الإنسانية الخاصة باللغة العربية ، يعتمد على التشريع والتعليم ، ذا صبغة معيارية. ولكن هذا لا يمنع من أن تكون في غايات تحليلية للنصوص وتقويمها بعد إفادتها من المناهج النقدية الحديثة ومناهج العلوم الإنسانية.

ولقد حققت البلاغة العربية جوهرها في دراسات إعجاز القرآن الكريم وشروح الحديث النبوي الشريف . وتعاملاتها مع النصوص الشعرية والنثرية في كثير من كتب التراث التي لم تؤخذ في الاعتبار عند النظر في البلاغة العربية وتطورها مثل : مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت٢٠٨هـ) وعيار الشعر لأبن طباطبا (ت٣٢٢هـ) وإعجاز القرآن للباقلاني (ت٤٠٣هـ) وغيرهم .

لقد أُريد من علم البلاغة أن يكون وسيلة إلى فهم كتاب الله عزّ وجل وتذوق الخطاب الأدبي والإسهام في إدراك جمالياتها وتقريبها إلى مدارك المهتمين والعموم من هذه الأمة .

إنّ البلاغة وُجدت بشكلها العملي في كلام العرب بسلائقهم قبل أن توجد بشكلها النظري ، شكل القواعد والأحكام ، والحدود والتعريفات ، فلقد تكلم العرب لغة سليمة لا لحن فيها ، واشتقوا ما شاءوا من الصيغ

والأوزان ، ونظموا الشعر على البحور المختلفة قبل أن يظهر علماء النحو والصرف والعروض والنقد ، لم تنشأ البلاغة مستقلة عن غيرها من علوم العربية والشريعة ، فقد نشأت تحت رعاية المشتغلين في إعجاز القرآن الكريم وبيان أسراره ، وكنف الفلاسفة والمتكلمين افادت من جهود الأصوليين الذين كانوا من أوائل المحتضنين للدراسات التي تدور حول الألفاظ ومعانيها[٢٧].

وأخيرا فإن البلاغة التي وصلت إلينا ناضجة ، تطورت بعد أن تداخلت معها علوم عربية منها شرعية ومنها فلسفية . والأهم والأكثر تداخلا معها علوم إعجاز القرآن الكريم وبيان أسراره .

٢. زمانية الأسلوبية :

ارتبطت نشأة الأسلوبية بالدراسات اللغوية ، ثم أفاد النقاد من دراسة النص وتحليله ، وبناء على ذلك فإنها تجمع بين المنهج العلمي في دراسة اللغة ، والمنهج النقدي في دراسة النص الأدبي ، أي أنها تجمع بين العلم والمنهج .

ومصطلح الأسلوبية حديث النشأة مع أنه قد أشير إلى مفهوم الأسلوبية ، في القرن الخامس عشر ، وتطور المصطلح في القرن الثامن عشر ، ثم بعد ذلك تمّ توضيحه واستعماله مصطلحا نقديا في القرن

---

[٢٧] ذكر الدكتور أحمد مطلوب في بحثه الموسوم بـ (منهج السكاكي في البلاغة) باختصار نشأة البلاغة ، ينظر : مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد العاشر / ٢٧٥ــ ٢٨١.

العشرين. "ومفهوم الأسلوب الذي ساد في القرن الثامن عشر ، وتأصل في الآراء المتزامنة معه حول اللغة والشعر مهدّ السبيل ، بل صار أساسا لتطور منهج أدبي محدد للبحث في الأساليب الشخصية والخاصة للشعراء ، منهج ما زال يؤخذ به إلى يوم الناس هذا لكونه مؤسسا على الإيمان بأن الأسلوب اللغوي في الشعر هو نوع من الأسلوب المصوغ صياغة متميزة"[٢٨] .

وبالرغم من أن كلمة الأسلوب بمعنى (طريقة العرض) قد عرفتها الثقافة الألمانية منذ القرن الخامس عشر ، وعلى الرغم من معايشة هذه الكلمة نوعا من المنافسة العلمية مع مصطلح (طريقة الكتابة) التي جاء بها أصحاب اللغة في القرن الثامن عشر ، فإن العلم المعني بالأسلوب والأسلوبية لا يزال حديثا نسبيا ، وإن الأسلوبية بمفهومها الجديد وبوصفها مصطلحا مستقلا لم ترَ النور في اللغات الأوربية إلاّ منذ القرن التاسع عشر ، ومصطلح الأسلوبية مصطلح جديد حديث النشأة ، لم يظهر بصورة واضحة إلاّ في مطلع القرن العشرين ، وظهور هذا المصطلح قد صاحبه ظهور عدد من النظريات اللغوية الحديثة ، التي كان رائدها العالم اللغوي سوسير ، الذي قارن بين اللغة والكلام عن طريق كشف أوجه التمييز . "وقد كان هذا التمييز بين اللغة كظاهرة لغوية مجردة ، توجد ضمنا في كل خطاب بشري ، ولا توجد أبدا هيكلا ماديا ملموسا ، والكلام بوصفه الظاهرة المجسدة للغة ، مساعدا على تحديد مجال الأسلوبية ، إذ أنها لا يمكن أن تتصل إلاّ بالكلام ، وهو الحيز المادي الملموس الذي يأخذ

---

[٢٨] نحو نظرية أسلوبية لسانية / ٢٩ /٣٠.

أشكالا مختلفة قد تكون عبارة ، أو خطابا ، أو رسالة ، أو قصيدة شعر"[٢٩].

أما الأسلوب في الاصطلاح والدلالات ، فيصعب تحديد دلالته لأن من الباحثين جعل دلالته في طريقة عرض النص من قبل المبدع ، ومنهم من جعل الدلالة في لغة النص والتعبير عن النص .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الأسلوب هو طريقة التعبير عند الكاتب ، أو هو الصورة اللغوية التي تميز كاتبا من آخر ، وقد ركزت المدرسة السوسيرية على الدراسات اللغوية في اعتمادها المنهج الأسلوبي حيث عُدّت الأسلوبية أساس الأدب والنقد ولولاها ما تشكلت صورة أدبية نقدية عن النص ، وذلك بسبب ملاحظاتها النقدية الهامة ولاسيما أنها "قد اهتمت بدراسة الوقائع اللغوية ومجموع السمات اللسانية الأصلية ، لكاتب من الكتّاب ، وبكتاب من الكتب ، إنها تركت للنقد وشرح النص ، أمر دمجهم وتأويلهم ضمن حالاتهم الخاصة وتوخت بذلك الحفاظ على علم مستقل للأسلوب يتجه إلى الشكل اللساني تكمن مهمته في إعطاء تعاريف وتصانيف وملاحظات للنقد[٣٠].

المحور الرابع : السكاكي ما بين البلاغة والأسلوبية.

من المعروف أن علوم البلاغة الثلاثة هي : علم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع ورؤية البلاغيين العرب لهذه العلوم من منظور

---

[٢٩] البلاغة والأسلوبية ، الدكتور محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط١ ، ١٩٩٤ / ٢٠٤.

[٣٠] الأسلوبية ، بيير جيرو ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط٢ ، ١٩٩٤ / ٧٦.

نقدي ، هي محاولة ربطها بالنص الأدبي بشكل عام ، أو في إطار البيت الشعري بشكل خاص .

أما الأسلوبية فإنها تتجاوز هذه العلوم ليضاف لها العنصر اللغوي الذي يعالج نصوصا ، قامت اللغة بوضع رموزها أي أن البلاغة تهتم بالجانب الجمالي والوظيفي ، والأسلوبية تهتم بهذين الجانبين يضاف له الجانب الجمالي في الظاهرة اللغوية ، وأثر ذلك على المتلقي الذي يتعامل مع النص ويقوم باستيعابه ، فإنها ترتبط بشكل أو بآخر بالدراسات البلاغية القديمة ، وترتبط بحدّ ما بجهد البلاغيين العرب القدماء في هذا المجال ، ونحن لا نستطيع عزل الأسلوبية عن البلاغة ، قد نجد بعض الاختلاف ولكننا مع ذلك نجد كثيرا من نقاط الالتقاء والاتفاق ، لأن كليهما يتعامل مع الجانب الجمالي للغة ، وعلاقة اللغة الإبداعية بالمبدع أولا ، ثم المتلقي ثانيا .

والعلاقة الإبداعية ، هذه تكمن في ما تعالجه البلاغة العربية من رؤى بلاغية تشكل المحاور الرئيسة للأسلوبية الحديثة.

ومن أجل توضيح هذه العلاقة بين العلمين وتبسيطهما ، جعلنا السكاكي محورا رابطا بين البلاغة والأسلوبية ، وعنصرا من عناصر التجاذب بينهما ، بوصفه هو الذي جمع كل الملاحظات والموضوعات البلاغية ، وبوّبها .

فالسكاكي يُعدّ من هذا الجانب صاحب الفضل في تهذيب مسائل البلاغة العربية ؛ حيث كانت صيغة السكاكي في الدرس البلاغي "أقرب

الصنيع إلى روح العلم وأجدرها بأن تكون طرفا في علاقة الحوار بين التراث البلاغي والأسلوبيات اللسانية المعاصرة"[٣١].

لذا يمكن أن يكون أنموذجا للموازنة والربط بين البلاغة والأسلوبية. أما مجال بيان هذا النموذج في علوم البلاغة الثلاثة فسيكون على قدر ما يسعه البحث.

ففي موضوعات علم المعاني الذي ذكرها السكاكي في كتابه مفتاح العلوم التي تخص ركني الجملة العربية الأساسية (المسند ، والمسند إليه) تحدث عن التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والتعريف والتنكير ، والالتفات ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والقصر.... الخ .

والأسلوبية من خلال هذه الموضوعات البلاغية تحاول الكشف عن المعنى ، وهي نقطة التقاء "وقد مثلت البلاغة في كثير من جوانبها العلاقة بين الأسلوب والمعنى ، وصلة هذا الأسلوب بما تتعرض له الجملة هو الذي يدخل تحت ما سمي بعلم المعاني الذي يختص بتتبع سمات تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره"[٣٢].

أما بعض الظواهر البلاغية التي لم تهتم الأسلوبية بها ، ولم تصل إليها. وقد ذكرها السكاكي في كتابه مفتاح العلوم ، فمنها ظاهرة الخبر الإنكاري وتنوع الخطاب فيه على وفق حالة المخاطب ، من ذلك قوله "صادق إني ، لمن ينكر صدقك إنكارا ، وإني لصادق ، لم يبالغ في إنكار

---

[٣١] في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة ، سعد عبد العزيز مصلوح ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، ٢٠٠٣ / ٣٠.

[٣٢] البلاغة والأسلوبية ، محمد عبد المطلب / ١٩٣.

صدقك. والله إني لصادق"[٣٣]. فهذه الظاهرة تستدعي الوقوف عليها في الدراسات الأسلوبية.

والظاهرة الأخرى هي ظاهرة التقديم والتأخير التي أشار إليها السكاكي بإسهاب ، فالتقديم الذي يكون على وفق العدول هو ظاهرة بلاغية ، تدرس وترعى من قبل الدارسين ، ما إذا كان على غير وفق العدول ، كأسماء الاستفهام وضمير الشأن ، فهما يشكلان ظاهرة أسلوبية تستدعي رصدها وتحليلها.

إن تحليل البنية اللغوية للنص وتفسيرها ، ورصد الظواهر فيها التي تناولتها الأسلوبية الحديثة هي مستويات العمل البلاغي ، والتي تُعد وسيلة الإبداع والنص .

وفي علم البيان وفنونه التي تدخل في رسم الصورة الأدبية ، فإن الأسلوبية ليست بعيدة عنه ، لأن هذه الفنون هي أساسيات الدرس الأسلوبي ، لكن بفرق بسيط ، هو تحليل هذه الظواهر لهذه الفنون وإبراز علاقاتها بالمعنى والقصد الفني الذي جعل المبدع يذهب إليه دون سواه .

وإلى هذه أشار السكاكي فقال : "وإذا عرفت أن يراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلاّ في الدلالات العقلية ، وهي الانتقال من معنى إلى معنى . بسبب علاقة بينهما ، كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه ظهر ذلك أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني"[٣٤].

---

[٣٣] مفتاح العلوم / ١٧١.

[٣٤] م . ن / ٣٣٠.

إن اللغة التي تشكل الصورة البيانية ، لغة ينتقل فيها السامع من مجرد تعبير لغوي مألوف إلى تجاوز لغوي ، للوصول إلى الظاهرة التي تشكل الصورة البيانية ، أي هي انحراف أسلوبي في اللغة وهذا الانحراف تتفاوت درجات اتساعه من مبدع لآخر على وفق ما يمتلكه من أدوات التعبير. "ومن اللافت للنظر أن هذه الوسائل التعبيرية الموروثة أصبحت بشكل أو بآخر إحدى مجالات الدراسة الأسلوبية الحديثة ، ليس بوصفها موروثات مقدسة ، وإنما بوصفها إمكانات لغوية من الممكن رصدها وتحليل العلاقات بينها لاكتشاف النظام العام الذي يحكمها ، ثم لتبين النية الجمالية التي تختفي وراءها"[٣٥].

وفي علم البديع وما يتصل به من محسنات لفظية ومعنوية ، فإن السكاكي تحدث عن قيمة هذه المحسنات بالنسبة للمعنى "وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع ، أعني أن لا تكون متكلفة"[٣٦].

وفي حديثه عن البديع لم يؤصل هذا العلم مثلما فعل مع علم المعاني ، وعلم البيان ، فقد كانت ملاحظات تقتصر على وضع القوانين أكثر من ربطها بالمعنى . "ومهما يكن من مآخذ على هذه الصورة فإنها في رأينا الصورة الوحيدة التي يمكن الانتفاع بها في المبحث الأسلوبي اللساني"[٣٧].

---

[٣٥] البلاغة والأسلوبية ، محمد عبد المطلب / ٣٥٣.

[٣٦] مفتاح العلوم / ٤٣٢.

[٣٧] في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة / ٦٢.

وفي ضوء ما سبق أن الفنون التي قام السكاكي بها ، وبوب وحدد موضوعاتها وجمع الاستشهاد لها ، هي من الخصائص الأسلوبية وهي قابلة للتشكيل الأدبي. ويمكن أن نعتمد عليها في التحليل الأسلوبي .

الخاتمة :

خرج البحث بنتائج ، هي :

١. هناك حضور واضح لعناصر الاتصال في الأسلوبية المعاصرة التي تحدثت البلاغة العربية عنها ، وعنيت بها ، وبيّنت دور كلّ واحد منها . وقد توقف البحث عند المتلقي وأثره في التشكيل الأسلوبي البلاغي ، حيث عنيت البلاغة العربية به ، لأن خطاب النص الأدبي يحمل المتعة والفائدة للمتلقي. والأسلوبية الحديثة دعت إلى الاهتمام بالمتلقي ، ولاسيما فيما يسمى بـ (أسلوبية المتلقي) .

٢. أما عوامل التشكيل الأسلوبي في النص فقد حددتها البلاغة العربية قديما. وفي الأسلوبية وجدنا أن هناك صلة وثيقة بين هذه العوامل التي تشكل دعائم الأسلوب ، وهي النص ، والمبدع ، والمتلقي ، والمقام .

٣. اهتمت البلاغة بالمتلقي ومراعاة حالته النفسية ومستواه الثقافي والإجتماعي .

٤. ارتبطت نشأة البلاغة العربية بالإعجاز القرآني ، والأسلوبية عُرفت في القرن الخامس عشر ، وتطورت في القرن الثامن عشر ، وفي القرن العشرين انتقل مجال الدراسة فيها من علم اللغة إلى الأدب ـ دراسة النص الأدبي ـ .

٥. تجمع الأسلوبية في دراستها النص بين المنهج العلمي في دراسة اللغة ، والمنهج النقدي في دراسة النص الأدبي ، أي أنها تجمع بين العلم والمنهج.

٦. قام البحث بتطبيق بعض المفاهيم التي توصل إليها السكاكي في كتاب "مفتاح العلوم" لإيجاد علاقة بين هذه المفاهيم والأسلوبية ، وذلك لما يعود للسكاكي من فضل بسبب ما حققه من إنجازات في علم البلاغة فقد ارتقى بها من مستوى الآراء والنظريات إلى مستوى العلم المنضبط ، لذلك قام البحث بإلقاء الضوء على بعض أوجه التمايز بين البحث البلاغي والأسلوبية المعاصرة ، ليتمّ التوصل إلى كيفية الانتفاع من البلاغة العربية لرسم ملامح الدرس الأسلوبي الحديث.

المصـــــادر :

١. الأسلوبية ، بييرجيرو ، ترجمة منـذر عياشـي ، مركـز الإنمـاء الحضاري ، حلب ، ط٢ ، ١٩٩٤.

٢. الأسلوبية ، مفاهيمها وتجلياتها ، موسى ربابعة ، جامعة الكويـت ، ط١ ، ٢٠٠٣م .

٣. الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، جلال الدين محمـد بن عبد الرحمن (ت٧٣٩هـ) شرح وتعليـق محمـد عبـد المـنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٣٩١هـ -١٩٧١م.

٤. أدب الكاتب ، لأبن قتيبة ، تح محمد الـوالي ، مؤسسـة الرسـالة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م .

٥. البرهان في وجوه البيان ، أبو الحسن بن وهب ، تح حفنـي محمـد شرف ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

٦. البلاغة والأسلوبية ، الدكتور محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط١ ، ١٩٩٤.

٧. البيان والتبيين ، للجاحظ ، أبـو عمـرو بـن عثمـان بـن بحـر (ت ٢٢٥هـ) ، تح عبد السلام هارون ، مطبعة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م .

٨. الحيوان للجاحظ ، تح عبد السلام هارون ، مطبعة عيسـى البـابي الحلبي ، القاهرة ، ط ٢.

٩. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١ هـ) ، علّق عليـه وشرحه محمود محمد شـاكر ، مطبعـة المـدني ، القـاهرة ، دار المدني ، جدة ، ط٣ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

١٠. ديوان الحطيئة ، تح نعمان طه ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٧.
١١. العمدة في محاسن الشعر ونقده ، أبن رشيق القيرواني (ت٤٦٥هـ) ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
١٢. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة ، سعد عبد العزيز مصلوح ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، ٢٠٠٣.
١٣. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين أبن الأثير (ت٦٣٧هـ) ، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م .
١٤. مفتاح العلوم للسكاكي ، ابو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت٦٢٦هـ) ، ضبطه وشرحه نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .
١٥. منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) ، تح محمد حبيب أبن الخوجة ، تونس ، ١٩٦٦.
١٦. نحو نظرية أسلوبية لسانية ، فيلي ساندريس ، ترجمة خالد محمود جمعة ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
١٧. الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي عبد العزيز الجرجاني (ت٣٩٥ هـ) ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ -١٩٦٦م.

الدوريات

❖ مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، المجلد العاشر.